20100830_0001_R

أكثر من سبعة عشر ألف مختفٍ قسراً

ام تبكي وهي ترفع لافتة في اعتصام نفذته لجنة اهالي المخطوفين والمفقودين في ذكرى ١٣ نيسان في الاسكوا (م.ع.م.)

يوسف حاج علي

اللقاء الأول مع وداد حلواني، رئيسة لجنة أهالي المفقودين والمخطوفين في لبنان، لم يكن وديّاً تماماً.
اتصلت بها حينها، طلباً لمقابلة من أجل إجراء تحقيق صحافي عن المخطوفين. كانت ذكرى الثالث عشر من نيسان، تاريخ انطلاق الحرب الأهلية، تلوح على الأبواب، وكنت أريد أن أكتب عن ضحاياها.
امتعضت وداد. رفضت أن نعيد الأسئلة والأجوبة المكررة ذاتها. ورفضت المشاركة في مقابلة يكون محورها الوحيد الألم والدموع. لم نكن نعرف بعضنا بالوجه وقتها، وشعرت بأن نبرة صوتها كانت قاسية بحقي. لكني أدركت لاحقاً أن البعض من أهل الإعلام، أو معظمهم، لا يتذكر ضحايا الإخفاء إلا في ذكرى الحرب الأهلية. وها قد وقعت، انا أيضاً، في فخ هذه الفكرة.
بعد نقاش عبر الهاتف، اقترحت وداد زاوية جديدة لمقاربة الموضوع تبدأ من طرح الأسئلة على ممارسي الخطف، ثم تعلق هي لاحقاً على إجاباتهم. دفعتني وداد يومها إلى فوهة المدفع مباشرة.
وهكذا كان.
توجّهت إلى أرشيف الجريدة لأقرأ في ملف المخطوفين، فوجدته مهولاً. أكثر من ثلاثة ملفات عملاقة. صفحات صفراء لا تنتهي من الأخبار والتحقيقات والتغطيات.
كلما قلبت صفحة، ظهرت قصة جديدة. أدركت أن كتابة الموضوع لن تكون سهلة أبداً، ففيها مسؤولية كبيرة تجاه الصفحات وأصحابها. فكرت مربكاً أن أتراجع وأن أبحث عن موضوع أسهل. لكن فكرة سؤال المرتكبين في وجوههم عن الضحايا ظلت تغويني.
خلال كتابة التحقيق، قابلت أحد نواب الميليشيات السابقة المعروف بأنه كان مسؤولاً عن حاجز البربارة الذي اشتهر بخطف الأمنيين وتعذيبهم وترويعهم وقتلهم. النائب لم ينف، خلال المقابلة، أن يكون تنظيمه قد مارس الخطف، لكنه أكد ببراءة الأطفال أن «الأسرى» كان يوقفون ويحقق معهم ويفرج عنهم في مراحل لاحقة. أما احتمال تسليم «أسرى» لدول أجنبية فوضعه النائب في عهدة مرحلة سابقة من قيادة الحزب الذي ينتمي إليه.
أذكر أنه نفى بشكل قاطع أن يكون قد تسلم أية مسؤولية على حاجز البربارة. والمقابلة بيننا دامت أكثر من ساعتين. في ختام المقابلة، بدا أن النائب الكريم ارتاح لمسار الحوار، فأحب أن يتحدث إلي عن تاريخه.
قال لي، بعيداً عن آلة التسجيل: «تعال أخبرك عن حادثة حصلت معي يوم كنت مسؤولاً عن حاجز البربارة». ولما نظرت إليه مندهشاً، تدارك زلة اللسان، وأوضح: «أي في المرحلة التي يتهمونني أني كنت فيها مسؤولاً عن حاجز البربارة»..
أروي الحادثة كنموذج لكيفية تعاطي السياسيين اللبنانيين على أنواعهم مع ملف بهذا القدر من الحساسية، تعاط ذو وجهان. واحد منمق وكاذب للإعلام، وآخر حقيقي وواقعي مخصص لسرد النوادر واستذكار الماضي. ناهيك عن كونهم المعنيين بالخطف.. وبإيجاد الحل لأهالي المخطوفين.
في المقابل، وإلى جانب أصحاب الحكاية، كان لا بد أن نصور، وداد وأنا، صديقين، بعدما ورطتني بمعرفتها وبالقضية التي تحملها. نذكّر بعضنا، بين الحين والآخر، باللقاء الهاتفي «الجاف» الأول، ونضحك سوياً. تعرفت إلى لجان الأهالي الأخرى عن قرب، وانغمست، من دون خيار مني، في واحد من أكثر الملفات المثيرة لحرج مرتكبيها. نواكب النشاطات التي تنظمها اللجان وتتابعها.
تعرفت إلى خيمة الاعتصام في وسط بيروت. وقربها، بكيت والزميلة في «النهار» منال شعيا سوياً، في تشييع أوديت سالم. الأم التي صدمتها سيارة قرب الخيمة، وقتلتها. ماتت محزونة على ولديها ريشار وماري - كريستين اللذين لم تعرف مصيرهما.
صار للأسماء التي أقرأ عنها في الملفات أهلٌ وجوههم حقيقية بالنسبة إلي. أتعرف على أمهاتهم وأخواتهم وزوجاتهم وبناتهم، واحدة بعد أخرى. النساء هن حقيقة من يتابعن مصير الأخوة والأبناء والأزواج والآباء، لا الرجال. مع الوقت، تأكدت أكثر من هذه الفكرة، خاصة عندما كنت أرى أن غالبية المشاركين في أي من النشاطات الداعمة للقضية هن من الإناث.
زاد حبي لهؤلاء السيدات وحفظت وجوههن. ملامح بتجاعيد الفراق والانتظار والأمل. لكل وجه قصة تستأهل كتاباً. لكل وجه حياة تغيرت ذات لحظة شر وتخلّ عن الشعور والقيم. أتواطأ وإياهن أحياناً بتبادل الأخبار والتسريبات المتعلقة بالموضوع.
نتشارك في قطع طريق أو في رفع لافتة أو حتى في تضخيم خبر. ونتشارك يومياتنا العادية، حيث لا حزن بالضرورة ولا ظلم ولا ساسة. منهن أتعلم كيف قررن قلب صفحة الماضي من كتاب الحياة، والقراءة في الصفحة البيضاء التالية، من دون التخلي عن الحق في معرفة مصير الأحبة. منهن، أتعلم الإيمان بيوم جديد.
يقولون إن عدد المفقودين في لبنان يصل إلى سبعة عشر ألفاً. مع أن الرقم الذي يعترف به النظام أقل من ذلك. فهناك من لم يتبق أحد من أهله ليطالب به، أو أن أهله قد هاجروا أو توفوا، أو لا يعرف بعمل لجان الأهالي، أو أنه قد مل وارتضى أن يعيش مع فكرة الفقدان فنحى بنفسه جانباً.
لكن، ليس هؤلاء وحدهم المخفيون قسراً..
اسألوا خيمة الاعتصام الجرداء التي فقدت ألوانها. اسألوا أرض حديقة جبران ودرج المتحف. اسألوا عائلة جابي الكهرباء عدنان جحا الذي اختفى وهو يؤدي عمله في جباية الفواتير ولم تقدم الدولة جواباً واحداً لعائلته، بل اكتفت بتحصيل حقها من قيمة الفواتير التي كان عليه أن يجبيها.
اسألوا ولديه إبراهيم ورامي. اسألوا عن أمن الناس المخطوف قسراً في شوارع المدينة على وقع الرصاص المفاجئ والقذائف الصاروخية «التافهة».
اسألوا العائلات التي تودع بعضها صباحاً من دون معرفة بإمكانية عودة التلاقي في المساء. اسألوا عن الموظف الأمين، صاحب الأجر المتواضع، الذي يؤدي عمله وبعض على أسنانه حتى لا يقع في مغريات الرشوة الحاضرة أبداً. إن ذلك أيضاً هو نوع من الإخفاء القسري عن الحياة الكريمة. اسألوا عن الحياة بلا مستقبل. بلا بصيص أمل.
في لبنان، المخفيون واللامرئيون كثر. ليسوا فقط سبعة عشر ألف مواطن. إنهم أكثر من ذلك. بكثير.